

ظاهرة الاستغناء باللغة

شعر الأعشى أنموذجاً

The Use of Dispense in Language; the Poetry of Al-A'sha as an Example

د. إيمان بنت محمد المدني *

| | | |
|-------------------------|---------------------------|---------------------------|
| تاريخ النشر: 2019/07/15 | تاريخ القبول: 2019./07/08 | تاريخ الإرسال: 2019/03/06 |
|-------------------------|---------------------------|---------------------------|

الملخص:

يهدف البحث إلى تأصيل ظاهرة الاستغناء في اللغة من خلال عرض المصطلح وشرحه، وذكر أهم أسباب استخدام هذه الظاهرة، وتتجلى هذه الأسباب بطلب الخفة في النطق، ووضوح المعنى في الأذهان، وكثرة الاستعمال للتراكيب، وأمن اللبس. وكي تتضح هذه الظاهرة جاء التطبيق عملياً على شعر أحد أعلام شعراء الجاهلية الفحول ألا وهو الأعشى لأن شعره حجة في اللغة، وظاهرة الاستغناء بارزة في شعره.

الكلمات المفتاحية: ظاهرة الاستغناء، الأعشى أنموذجاً

Abstract:

Language dispense is a linguistic phenomenon that occupies a sizable space in the Arabic grammar legacy. It attracted the attention of major Arabic linguists like Sibawayh and later linguists .

Research Objectives:

The current research aims at investigating language dispense in Arabic through the explanation of the term and its major uses in Arabic. One of the main reasons leading to the use of dispense is to facilitate the pronunciation,

* جامعة الأميرة نورة بنت عبدالرحمن الرياض، المملكة العربية السعودية

البريد الإلكتروني/eman.m.m.123@hotmail.com

clarity, the excess use of certain language constructs, avoiding confusion. A practical application on the poetry of Al-A'sha who is one of the prominent poets of Arabic will follow to demonstrate the use of language dispense as an evidence to its recurrent usage in Arabic .

Key Words: Dispense in language, Al-A'sha as an example.

*** **

. مقدمة:

إن ظاهرة الاستغناء في اللغة العربية ظاهرة واسعة متشعبة في مباحث علماء النحو واللغة. وقد سعى هذا البحث لتقديم تعريف عام بهذا المصطلح بغية تأصيله وذكر بعض أسباب نشوء هذه الظاهرة، ومن ثم طبقت هذه الظاهرة على شعر الأعشى، وذلك لأهمية شعره في الاحتجاج، ومكانة الأعشى المتقدمة بين شعراء الطبقة الأولى للفحول.

إن الباعث الأساسي لتناول هذا الموضوع بالبحث والدراسة هو عدم وجود دراسة تطبيقية على ظاهرة الاستغناء التي تأخذ حيزاً كبيراً من اهتمام علماء النحو واللغة، وكذلك فإن شعر الأعشى يمثل النموذج الأمثل للتطبيق على هذه الظاهرة لاحتفاله بها وتعدد جوانبها عنده.

أهداف البحث:

يرجى من هذا البحث أن يحقق أهدافاً ونتائج من النواحي النظرية والتطبيقية، وتتمثل في:

1- من الناحية النظرية: يهدف هذا البحث إلى تأصيل مصطلح الاستغناء وعرض مظاهر هذه الظاهرة من حيث الحذف، والتسلط على العناصر القوية في التركيب مثل الأفعال أكثر من تسلطه على العناصر الضعيفة كالأسماء.

2- من الناحية التطبيقية: إن تطبيق ظاهرة الاستغناء على شعر شاعر مشهور حظي شعره باهتمام اللغويين والنحويين، يوضح هذه الظاهرة، ويبين مكانتها في

الشعر وأهمية استعمالها والسبب الذي يدعو الشاعر للأخذ بظاهرة لغوية دون غيرها في شعره.

منهج البحث وإجراءاته:

يعتمد البحث المنهج الوصفي والتحليلي الذي تقتضيه طبيعة دراسة هذه الظاهرة، من تأصيل لها وجمع البيانات والمعلومات باستخدام المصادر والمراجع ومن ثم تحليل الشواهد المختارة من ديوان الأعشى.

ولم أقف على دراسات تطبيقية لظاهرة الاستغناء عند الأعشى. وبعد العودة إلى الديوان وتحليل شواهد منتقاة من شعره ثم الوصول إلى نتائج تخصّ البحث وتفسّر هذه الظاهرة.

خطة البحث

تأصيل مصطلح "الاستغناء" لغة، اصطلاحاً

مظاهر الاستغناء وأسبابه

ظاهرة الاستغناء في شعر الأعشى

أنواع الاستغناء عنده:

أولاً: الاستغناء عن الأفعال في شعر الأعشى:

الاستغناء عن الفعل بالمفعول به

الاستغناء عن الفعل بالمصدر

الاستغناء عن الأفعال بنظائرها

ثانياً: الاستغناء عن الأسماء:

الاستغناء عن المبتدأ

الاستغناء عن الخبر

الاستغناء عن الفاعل

خاتمة وأهم نتائج البحث

قائمة المصادر والمراجع

تأصيل المصطلح:

"الاستغناء" لغة واصطلاحاً:

أما معنى اللفظ لغة: فإن تتبّع لفظة الاستغناء في كثير من معاجم العربية يفضي إلى معانٍ متعدّدة، يمكن حصر معظمها في المعاني الآتية:

1- الكفاية والإجزاء: ومن ذلك ما جاء في تهذيب اللغة: "وأما الغنَاءُ بفتح الغين والمدِّ فهو الإجزاء والكفاية، يقال: رجلٌ مُغْنٍ، أي: مُجْزئٌ كافٍ، يقال: أغْنيت عنك مَغْنَى فلان ومغناته: أجزأت عنك مُجْزأه ومُجْزأته.." (1).

وكذلك جاء في مقاييس اللغة: "الغنى والغناء بفتح الغين مع المدّ: الكفاية.." (2). وكذا في الصحاح واللسان وتاج العروس. (3)

2- النيابة: قال ابن سيده: "وأغنى عنه غنَاء فلان..: ناب عنه" (4).

جاء في اللسان: "وأغنى عنه غناء فلانٍ ومِغْنَاه ومَغْنَاتِه ومُغْنَاه: ناب عنه وأجزأ عنه مُجْزَأة" (5).

3- الصرف والإطراح: جاء في اللسان: "وفي حديث الجمعة: (من استغنى بلهو أو تجارة استغنى الله عنه والله غنيّ حميد) أي: أطرحه الله ورمى به من عَيْنِه" (6).

4- الصوت والغناء: وهذا المعنى لا يتّصل بموضوع اللغة ههنا.

وأما مصطلح "الاستغناء" فإن تتبّع هذا المصطلح في كتب التراث النحوي تظهر تشعب هذا المصطلح وعدم الدقة في تحديد مدلوله. فقد استعمله النحويون واللغويون بمعنى الحذف أو الإلغاء أو الإبدال أو العدول. ومن استقراء لظاهرة الاستغناء يمكن أن نوجز تعريف مصطلح الاستغناء بأنه ظاهرة لغوية لفظية من

ظواهر الحذف، ذات ركنين، يغيب فيها العنصر اللغوي البتة خلافاً للأصل المفترض وفاقاً للسمع، ويغني عنه آخر لغرض نظمي سياق معنوي. (7)

ولم يضع النحويون تعريفاً دقيقاً لمصطلح "الاستغناء" ولكن هذا المصطلح كان ناضجاً في كتاب سيبويه، وقد استعمل مصطلحات الإضمار وترك الاستعمال والإبدال اللفظي والاختزال بمعنى الاستغناء. (8)

ومما جاء في كتاب سيبويه في الاستغناء قوله:

"اعلم أنّهم ممّا يحذفون الكلم، وإن كان أصله في الكلام غير ذلك، ويحذفون ويعوّضون ويستغنون بالشيء عن الشيء الذي أصله في كلامهم أن يُستعمل حتى يصير ساقطاً، فمما حذف وأصله في الكلام غير ذلك، لم يكُ، ولا أدِر، وأشباه ذلك، وأمّا استغناؤهم بالشيء عن الشيء، فإنّهم يقولون: يدَع، ولا يقولون: ودَع، استغنوا عنها بـ"ترك"، وأشباه ذلك كثير، والعوض قولهم: زنادقة وزناديق وفرازين، حذفوا الياء وعوّضوا الهاء، وقوله: أسطاعَ يسطِيع، وإنّما هي: أطاع يُطِيع، زادوا السين عوضاً من ذهاب حركة العين من أفعال، وقولهم: اللهم، حذفوا "يا" وألحقوا الميم عوضاً" (9).

وقد جعل سيبويه الاستغناء في الأبواب الأولى من كتابه، وقد سار كثير من علماء اللغة والنحو على منهج سيبويه في مبحث الاستغناء ووافقت أمثلتهم أمثلة سيبويه في كثير من الأحيان، ومن هؤلاء العلماء المبرد (10) وابن السراج (11) والسيرافي (12).

مظاهر الاستغناء:

ظاهرة الاستغناء لها مظاهر كثيرة لكن الحذف أبرز مظاهرها، وكل استغناء حذف، وليس كل حذف استغناء، فالحذف واسع، ومسالكه في الكلام أرحب. وقد تستغني العرب عن بعض العناصر في تراكيب مخصوصة، لأطراد استعمال هذه

التركيب في مقاماتها المناسبة، مما يجعل إسقاط هذه العناصر ضرورة لا بدّ منها. والاستغناء يكون عن الأفعال والأسماء، ولكن الاستغناء عن الفعل أكثر في كلام العرب، لأن الاستغناء يتسلط على العناصر القويّة في التركيب أكثر من تسلطه على العناصر الضعيفة.(13)

أسباب الاستغناء:

ولعلّ من أبرز الأسباب التي تدعو للاستغناء عن أحد عناصر الجملة: طلب الخفة في النطق(14)، مثل أسلوب التحذير، ووضوح المعنى في الأذهان، لأن الألفاظ إنّما جيء بها للدلالة على المعنى، فإذا فهم المعنى دون اللفظ جاز الاستغناء عنه.(15) وكثرة الاستعمال للتركيب تدعو إلى التخفيف والاستغناء عن بعض عناصرها(16)، ومن دواعي استعمال الاستغناء في كلام العرب أمن اللبس، لأن "الإلباس متى وقع لم يجز لأن الكلام وضع للإبانة"(17).

وما من تركيب استُغني فيه عن عنصر إلى الزيادة العناية بالمستغنى به، لأن المذكور أخرى بالعناية السياقية من المحذوف.

وسنقف في هذا البحث على ظاهرة الاستغناء تطبيقاً عملياً على شعر الأعشى لنحدّد أسباب استخدامه لهذه الظاهرة وأهمية الاستغناء في خدمة المعنى. ظاهرة الاستغناء في شعر الأعشى:

اسمه ونسبه:

الأعشى ميمون بن قيس، من قبيلة ربيعة بن نزار، يكنى أبا بصير، كان جاهلياً وأدرك الإسلام في آخر عمره. وهو أحد أعلام شعراء الجاهلية الفحول كانت العرب تسمّيه صنّاجة العرب.(18)

وقد حظي شعر الأعشى باهتمام اللغويين والنحويين فاستشهد بشعره على ظواهر نحوية ولغوية، وكان حجة في ذلك، ولذلك فإن ظاهرة الاستغناء كانت بارزة

في شعره. وتقسم دراسة الاستغناء في شعره إلى قسمين: الاستغناء عن الأفعال، والاستغناء عن الأسماء. وستتناول كل قسم على حدة على أن البحث لن يعرض لكل أمثلة الاستغناء عنده لاتساعها.

أنواع الاستغناء عند الأعشى:

أولاً: الاستغناء عن الأفعال: قد يستغنى عن الأفعال بمعمولاتها المنصوبة التي تكون دليلاً عليها، مثل المفعول به والمصدر.

1- فمن باب الاستغناء عن الفعل بالمفعول به في شعر الأعشى ما جاء في غرض النداء، فيستغنى عن الفعل في أسلوب النداء وقد يترافق النداء مع أحد حروف التنبيه تأكيداً عليه، ومن ذلك قول الأعشى: (19)

فإن تسألني عني فإيا ربِّ حَفِيٍّ عن الأعشى به حيثُ
ألا أيهدا السائلي: أينَ فإنَّ لها في أهلٍ يثربَ مَوْعِدا

استعمل الأعشى أسلوب النداء، واستغنى عن الفعل، فلم يقل: ناديت سائلي. ونبه السائل عن وجهة ناقلته بقوله "ألا"، ولم يستعمل "يا" لئلا يستثقل التركيب، وأراد بـ"أيهدا السائلي" إجابة مهمة لكل سائل دون تخصيص.

والاستغناء عن لفظ فعل النداء يورث جملة النداء مزية سياقية فينقلها من مقام الإخبار إلى مقام الإنشاء، وقد أراد الأعشى خطاب السائل خطاباً تفاعلياً، يعلّل من خلاله تحمّله مصاعب الرحلة شطر المدينة.

ومن باب الاستغناء عن الفعل في أسلوب النداء في شعر الأعشى قوله: (20)

شُرَيْحُ لا تَتَزَكِّيَ بعدما عَلِقْتُ حِبَالَكَ اليومَ بعد القِدِّ أظفاري

فاستغنى الأعشى عن فعل النداء وعن التنبيه، فلم يقل: أنادي شريحاً، أو: يا شريح، لأنه أراد إبراز مكانة الممدوح المنادى القريب من نفسه، فنداؤه مباشرة تنبيهاً له، ودلالة على قربه النفسي منه.

ومن هذا الباب في شعر الأعشى قوله: (21)

حَتَّىٰ بَيْتِ الْقَوْمِ فِي الصَّفِّ يَقُولُونَ: نَوَّرَ صُبْحُ وَاللَّيْلُ عَاتِمٌ

حذف الأعشى حرف التنبيه "يا" من نداء النكرة المقصودة، والقياس ذكرها، واستغنى عن فعل النداء لمناسبة المقام، فهو يصف شدة هذه الليلة وحال الأعداء وهم ينتظرون الخلاص والفرج فينادون الصبح مشتكين طول الليل، فجاء ضيق الحال النفسية لديهم مُعبِّراً عنه بضيق مقام النداء، فكان الاستغناء عن الفعل وأداة التنبيه أبلغ في التعبير، وكأَنَّهُم يريدون من الصبح التنبيه والإقبال عليهم ليتخلصوا من شدة الخطوب.

والبيت فيه مخالفة للقياس النحوي لأن المنادى النكرة المقصودة يجب ذكر

أداة التنبيه منه. (22)

ومن باب الاستغناء عن الفعل بالمفعول به، ما جاء في باب التحذير والإغراء ويستغنى عن الفعل في أسلوب التحذير والإغراء لأسباب عديدة أبرزها: العناية بالمذكور دون المستغنى عنه، ووضوح المستغنى عنه في الأذهان، واختصار الكلام، وقد ذكر سيبويه علل الاستغناء عن فعل التحذير، بقوله:

"وإنما حذفوا أفعال في هذه الأشياء حين ثنوا، لكثرتها في كلامهم، واستغناء بما يرون من الحال، وبما جرى من الذكر، وصار المفعول الأول بدلاً من اللفظ بالفعل" (23).

وفي شعر الأعشى نقف على بيت واحد في مقام التحذير، وهو قوله: (24)

فِيَاكَ وَالْمَيْتَاتِ لَا تَأْكُلَنَّهَا وَلَا تَأْخُذَنَّ سَهْمًا حديدًا

استغنى الأعشى عن قوله: احذر الميتات، وذكر الضمير "إياك" لأن تحريم أكل الميتات بهذا الأسلوب أبلغ وأكثر تبغيضاً له في النفس وتنبيهاً للنفس وتحذيراً لها ممّا قد يؤدي إلى الهلاك.

2- ويكون الاستغناء عن الفعل بالمصدر في أسلوب الإنشاء والخبر:
ومما جاء عند الأعشى في باب استغناء عن الفعل بالمصدر بأسلوب الإنشاء
قوله: (25)

أقولُ لما جاءني فخرُهُ سُبْحانَ مِنْ علقمةَ الفاخِرِ

إن لفظ "سبحان" مصدر استغني به عن التلقظ بفعله "أسبح" وجاء هذا
الاستغناء بتعجب مصحوب بالتهكُّم في فخر علقمة بنفسه وهو ليس أهلاً لذلك.
والأصل في المصدر "سبحان" أن يكون مضافاً، ولكن الأعشى في هذا البيت
حذف المضاف إليه، وترك المصدر دون إضافة، ولعلماء اللغة مذاهب في تأويل هذه
الصيغة غير المضافة، فذهب سيبويه والمبرد وابن جني إلى أن "سبحان" مصدر بمعنى
براءة، وقوله: "سُبْحان من علقمة" معناه: براءة منه. (26)

وذهب ابن مالك إلى أنه أراد "سبحان الله" فحذف المضاف إليه وترك المضاف
بهيئته التي كان عليها قبل الحذف. (27)

والأصل في معنى "سبحان" التنزيه والبراءة من العيوب، لكنّه قد يستعمل في
سياق التعجب، ولو حُمِل "سبحان" في بيت الأعشى على البراءة لقال: براءة من
علقمة، إلا أنه قصد لفظ "سبحان" دون غيرها لإرادة معناها، وهو تنزيه الله عن
النقص بعد أن صنع التناقض، وذلك في سياق تعجب غرضه المبالغة في التهكم
بالمهجو.

ومما جاء في شعر الأعشى من الاستغناء عن المصدر في أسلوب الإنشاء غير
الطلي قوله: (28)

أجدك لم تغتمض ليلَةً فتزفدها مع رقادها

قوله "أجدك" استفهام يحمل غرض التعجب، وقد انتصب المصدر "جدك"
بفعل مستغنى عنه، فلزم الإضافة والاستفهام.

وقد ذكر ابن منظور أنّ من قال: أَجِدُّكَ بِكسر الجيم، فَإِنَّهُ يَسْتَحْلِفُهُ بِجِدِّهِ
وحقيقته، وإذا فتح الجيم استخلفه بِجِدِّهِ، وهو بَخْتُهُ وحِظُّهُ.⁽²⁹⁾
وكذلك قوله:⁽³⁰⁾

أَجِدُّكَ وَدَعَّتْ الصِّبَا وَالْوَالِدَا وَأَصْبَحْتَ بَعْدَ الْجَوْرِ فِيهِنَّ
أما الاستغناء عن الفعل بالمصدر في أسلوب الخبر فأمثلته كثيرة في شعر
الأعشى ومنها قوله:⁽³¹⁾

أَزْمَعْتَ مِنْ آلِ لَيْلَى ابْتِكَارَا وَشَطَّتْ عَلَى ذِي هَوَى أَنْ تُزَارَا
وبانت بها غَرَبَاتُ النَّوَى وَبَدَلْتُ شَوْقاً بِهَا وَإِدْكَارَا
ففاضت دموعي كفيض الغُرُوبِ بِ إِمَّا وَكَيْفَاً وَإِمَّا انْحِدَارَا
استغنى الشاعر عن فعلي المصدرين "تَكْفُفٌ وَكَيْفَاً"، وتندرُ انْحِدَارَا"، بالمصدر
لأنه أراد ههنا التفصيل في الصورة الحركية في وصف فيض دموعه بعد رحيل
المحوبة، فالبكاء يتراوح بين انهيار الدمع دفعة واحدة وبين التنزل تدريجياً، وهذا
التصوير الحركي يناسبه المصدر أكثر من الفعل الثابت.
ومن ذلك أيضاً قوله:⁽³²⁾

غَدوتَ عَلَيْهَا قُبَيْلَ الشُّرُو قِي إِمَّا نِقَالاً وَإِمَّا اغْتِمَارَا

فالأعشى يصف شربه الخمر قبل شروق الشمس إِمَّا بِمناقلة الأقداح أو
الاعتمار وهو الشرب دون الرِّيِّ⁽³³⁾، وهذه الصورة المتحركة يناسبها الاستغناء عن
الفعل بالمصدر، فلم يقل: نَاقَلْتُ نِقَالاً وَاغْتَمَرْتُ اغْتِمَاراً، لأن الفعل فيه من الثبات
والجمود ما يعيق حركية الصورة، فجاء البيان بالمصدر ليسبغ على النص التجدد
في المعاني والحركة في الحدث، وهذا ما قصده الأعشى.

3- الاستغناء عن الأفعال بنظائرها:

ويكون هذا الاستغناء في أسلوب الاشتغال، وقد عبّر سيبويه عن مفهوم الاشتغال بأنه ما يكون فيه الفعل مبنياً على الاسم، أي: مسنداً إلى الاسم المتقدِّم، ووصفَ الفعل بأنه قد شُغِلَ بالمضمر، فنُصِبَ الاسمُ بفعلٍ مستغنى عنه يفسِّره المذكور، إلاَّ أنَّهم لا يظهرون هذا الفعل استغناءً بتفسيره.⁽³⁴⁾

وقد يدل الفعل المستغنى عنه على الحدث دلالة قطعية، ومن ذلك قول الأعشى:⁽³⁵⁾

هريرةٌ ودَّعها وإنَّ لامَ لائِمٌ غداةٌ غدٍ أم أنتَ للبين

فقد دلَّ الفعل "ودَّعها" على الفعل المستغنى عنه دلالة قطعية، فالأصل: ودَّع هريرةٌ ودَّعها. وقدَّم "هريرةٌ ودَّعها" للعناية بها وهو يعبّر عن ضيقه وغضبه من المفارقة ويؤكِّد عليها من خلال أسلوب الاستغناء الذي يعدُّ أسلوباً من أساليب التوكيد وتكرّر ذكر هريرة مرتين ظاهراً ومضمراً كما تكرّر ذكر الفعل حقيقةً ومستغنى عنه، وفي القصيدة رسالة شديدة اللهجة لبني شيبان يحذِّرهم من التناول على قومه، إذ صار لزاماً وداع هريرة وإنَّ لامَ اللائِمون.⁽³⁶⁾

وقد يدل الفعل المستغنى عنه- في باب الاشتغال- على الحدث دلالة ظنيّة، ومن ذلك قوله:⁽³⁷⁾

وربَّكَ لا تُشْرِكُ به إنَّ شِرْكُهُ يحطُّ من الخيراتِ تلك البواقيا

فيقدّر المستغنى به بالفعل وجِد رَبِّكَ لا تشرك به، واستغنى عن الفعل لأهميّة المفعول به "رَبِّكَ" وتعظيماً لشأنه عزَّ وجلَّ، وبيان مكانته في النفس، وزيادة في توكيد النهي عن الشرك.

ومن ذلك أيضاً قوله:⁽³⁸⁾

وجارةٌ جنُبِ البيتِ لا تَبْغِ سِرَّها فإنَّكَ لا تخفى على الله

فقدّر الفعل المستغنى عنه بـ"احفظ" جارةً جنب البيت، لبيان أهمية حقّ الجارة في الحفظ، وزيادة في توكيد النهي في معرفة أسرارها وأمورها. والاستغناء عن الأفعال كثير في شعر الأعشى قدمنا جزءاً من الأمثلة عنه لكثرتها.

ثانياً: الاستغناء عن الأسماء:

يستغنى عن الأسماء التي تعد عمدة في الكلام مثل: المبتدأ والخبر والفاعل، أكثر من الاستغناء عن الأسماء التي تعدّ فضلة في الكلام. وسنأتي بأمثلة على ذلك من شعر الأعشى مفصلاً.

1- الاستغناء عن المبتدأ: وهو كثير في شعر الشعراء وكلام العرب، إذ "قد يلجأ المتكلم إلى حذف المبتدأ ليعبر بذلك عن استحقاقه الوصف الذي جعل له، بحيث يُعلم بالضرورة أن ذلك الوصف ليس إلاّ له"⁽³⁹⁾.

وقد جاء الاستغناء عن المبتدأ في سياق قطع الخبر، وأمثله كثيرة في ديوانه، ومنها:⁽⁴⁰⁾

متى ما تُناخي عند باب ابن هاشم تُرِيحي وتَلْقِي من فواضله يدا
نبيّ يرى ما لا تَرُونَ وِذْكَرُهُ أغارَ لعمرى في البلادِ وأنجدا
فلم يقل "هونبيّ" فحذف المبتدأ، واستغنى عنه بالخبر تعظيماً له، وتنبهاً على

مكانته، ومن باب الاستغناء عن المبتدأ قوله:⁽⁴¹⁾

وَدَّعْ هريرةً إِنَّ الركبَ مُرْتَجِلٌ وهل تطيقُ وداعاً أُنْهَى الرَّجُلُ؟

غراءَ فَرَعَاءَ مصقولٌ عوارضها تمشي الهوينى كما يمشي الوجي الوجِلُ

صِفْرُ الوشاحِ ومِلءُ الدَّرْعِ هَهْكَنَهُ إذا تَأْتَى يكاد الخَصْرُ يَنْخَزِلُ⁽⁴²⁾

استغنى الأعشى عن المبتدأ المتعدّد في البيتين الثاني والثالث، وبدلُ تعدّد الأخبار على ذلك، غراء، فرعاء، مصقول عوارضها، تمشي الهوينى، صفر الوشاح، بهكنة.

وهذا الاستغناء عن المبتدأ بتناسق وتآلف في الأبيات يضي على النص إيقاعاً داخلياً وموسيقاً تركيبية تجعل النص حركياً وسريعاً، فأراد الشاعر التلذذ بذكر الخبر والتنبيه على محاسن المحبوبة.

ومن باب الاستغناء عن المبتدأ في شعر الأعشى قوله: (43)

هُمُ الْخِضَارُمُ إِن غَابُوا وَإِن شَهِدُوا وَلَا يُرَوْنَ إِلَى جَارَاتِهِمْ حُنْعًا
قَوْمٌ بِيُوتِهِمْ أَمْنٌ لِحَارِهِمْ يَوْمًا إِذَا ضَحَّتِ الْمَحْدُورَةُ الْقَدْعَا

حذف المبتدأ واستغنى عنه بالخبر، فقال: قومٌ، وذلك تخقفاً في الكلام، إذ ذكر في البيت الأول "هم"، فلم يرد استئصال الكلام بتكرار المبتدأ، وإذا الشاعر يعلم تمكّن المبتدأ في نفس السامع، فاستغنى عنه.

2- الاستغناء عن الخبر: الأصل في الخبر أن يكون ظاهراً مذكوراً، أما إذا كان عامّاً فيستغنى عنه بشبه جملة، ويغني عن الخبر باطراد ظرف، أو حرف جر تام، يعني أن شبه الجملة وقع موقع الخبر ونزل منزلته فصار كالمدة، ومثاله في شعر الأعشى: (44)

إِنَّ مَحَلًّا وَإِنَّ مُرْتَحَلًا وَإِنَّ فِي السَّفَرِ مَا مَضُوا مَهَلًا
فقد استغنى الأعشى عن خبر "إِنَّ" بشبه الجملة المحذوف، والتقدير كما يقول السيرافي: إِنَّ لَنَا مَحَلًّا فِي الدُّنْيَا مَا عَشْنَا، وَإِنَّ لَنَا عَنْهَا مُرْتَحَلًا إِلَى الْآخِرَةِ، لَكِنَّهُ حَذَفَ شَبْهَ الْجُمْلَةِ الْمُسْتَغْنَى بِهِ عَنِ الْخَبْرِ الْعَامِّ عَلَى غَيْرِ الْقِيَاسِ، وَبَدَلَ عَلَى أَنَّ الْمَحْذُوفَ شَبْهَ جُمْلَةٍ قَوْلِهِ فِي الشُّطْرِ الثَّانِي:

وإنَّ في السَّفْرِ ما مضوا مهلا

... ..

فاستغنى عن خبر "إنَّ" بشبه الجملة "في السَّفْرِ".⁽⁴⁵⁾

وقد علَّل النحويون اللغويون حذف الخبر بأمور عدَّة أبرزها ما جاء به ابن السراج فقال: "وحسَّن حذفَ الخبر أنَّ العناية منه إنَّما هي بإثبات المحلِّ والمرتحل دون غيره".⁽⁴⁶⁾

وعلَّل التفتازاني ذلك بقصد الاختصار والعدول إلى أقوى الدليلين، وهو العقل، ولضيق مقام الشعر عن ذكره، واتَّباع السماع في حذف خبر الأحرف المشبهة بالفعل، ويعني بالعدول إلى العقل أنَّه يجعل الخبر فضاءً عامًّا بالحذف، فيترك للعقل أن يخمِّن المحذوف، فتتَّسع المعاني المتواردة عليه.⁽⁴⁷⁾

ومن باب الاستغناء عن الخبر في شعر الأعشى قوله في وصف الخمرة:⁽⁴⁸⁾

لها أُرْجُ في البيتِ عالٍ كأنَّما ألمَّ به من تجرِّ ادريْنَ أَرْكَبُ

جاء الأعشى بالمبتدأ "أُرْج" واستغنى عن خبره وذلك ليدل على ملازمته لكأس الخمر، إذ رائحتها تضوع كما يضوع المسك، وهو بات لا يفارقها، فأراد إبراز مكانتها في نفسه، وشدَّة التصاقه بها.

ومما جاء من باب الاستغناء عن الخبر ما وجب الاستغناء عن الخبر العام بالمبتدأ بعد "لولا"، وقد علَّل سيوييه حذفه لكثرة استعمالهم إياه في كلامهم، وفهم المعنى، وذكر المبرد ذلك بقوله: "ويقع الخبر محذوفاً لأنَّه لا يقع فيه الاسم إلا وخبره مدلول عليه، فاستغنى عن ذكره"⁽⁴⁹⁾.

ومما جاء من هذا الباب قوله:⁽⁵⁰⁾

يكادُ يَصْرَعُها لولا تشدُّدُها إذا تقومُ إلى جارِئِها الكَسَلُ

فقد استغنى عن الخبر لوضوحه في الأذهان، وقد شرح التبريزي البيت بقوله:

"لولا أنَّها تشدَّد إذا قامت لسقطت"⁽⁵¹⁾.

وكذلك قوله: (52)

فَجِئْتُكَ مُرْتَادًا مَا خَبَّرُوا ولولا الذي خَبَّرُوا لم تَرَنْ

استغني عن خبر لولا العام، وذلك يوحي بتعظيم الممدوح وجزيل عطائه، فحذف الخبر يترك باب العطاء والجود وكرم الممدوح مفتوحاً متسعاً في ذهن السامع. 3- الاستغناء عن الفاعل: الفاعل جزء من الفعل، وقد مُزج بالفعل وصيغ معه، حتى صار جزءاً من جملته، ولا بُدَّ للفعل من فاعل، فلا يقوم في وهم ولا يصح في عقل أن يتفكّر متفكِّراً في معنى "فعل" من غير أن يريد إعماله في اسم. (53)

واختلف النحويون في جواز الاستغناء عن الفاعل، وذهبوا إلى أن الفاعل يستغنى عنه في سياق التنازع أو التعجب أو الاستثناء المفعّل أو الأفعال المكفوفة بـ"ما" أو الاستغناء عن فعله.

ومما جاء في شعر الأعشى من هذا الباب قوله: (54)

وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا ذَاتُ رَيْعٍ مُفَاضَةً وَأَسْهَلَ مِنْهُمْ عُصْبَةً فَأَطَلَّتْ

استغنى الأعشى عن فاعل "يبق" واختار الاستثناء المفعّل لأنه يليق بمقام وصف إقفار ساحة المعركة من كلّ شيء إلا من الدروع الواسعة الكثيرة. ومما يدلُّ على أنّ ثمة فاعلاً مستغنى عنه مقدّر بـ"شيء" تذكير الفعل "يبق"، ولو كان الفاعل "ذات ريع" لقال: تبق. والاستثناء المفعّل لا يحتمل إلا الرفع.

ومن باب الاستغناء عن الفاعل في شعر الأعشى ما جاء في الأفعال المكفوفة بـ"ما"، ومن ذلك قوله: (55)

أَقْصِرْ فَإِنَّكَ طالما أُوضِعْتَ في إعجابها

ويستغنى الفعل المكفوف بـ"ما" عن الفاعل وذلك تهيئة لهذه الأفعال للدخول على الفعل، لأن الفعل لا يدخل على الفعل، فلما دخلت عليه "ما" الكافة تخلص للفعل واستغنى عن الفاعل، وابتعد عن معنى الحدث الذي يستوجب فاعلاً. (56)

وكذلك قوله: (57)

فاصْبِرْ فَإِنَّكَ طَالَمَا
أَعْمَلْتَ نَفْسَكَ فِي الْخَسَارِ
فاستغني عن فاعل "طال" عند دخول "ما" عليه، وأشبهه الحرف.
خاتمة:

سعى البحث إلى دراسة ظاهرة الاستغناء في العربية في ضوء شعر الأعشى، وهي ظاهرة على جانب كبير من الاتساع والأهمية. وقد بدأت بتعريف "الاستغناء" لغة واصطلاحاً على نحو عام، ثم تناولت شواهد من شعر الأعشى تبين أنواع الاستغناء عنده، وهي ظاهرة بارزة في شعره، فقد استغنى عن الأفعال تارة وأخرى عن الأسماء، وانتهى البحث إلى جملة من النتائج، يمكن إجمالها فيما يأتي:

1- للاستغناء معنى عام، يكثر دوره في تصانيف العربية المختلفة، ويعبر عما تنص به هذه اللغة من حيوية واتساع، وله معان اصطلاحية مدارها حول الحذف وطلب الخفة في الكلام.

2- ظاهرة الاستغناء متنسعة وقد استخدمها الشعراء الفحول في أشعارهم، وهي مطردة في أشعار الشعراء عامة.

3- الاستغناء نوعان:

1- الاستغناء عن الأفعال بعمولاتها المنصوبة التي تكون دليلاً عليها مثل: المفعول به والمصدر، وقد جاء عند الأعشى في غرض النداء في أسلوب الإنشاء والخبر. وقد جاء عند الأعشى في غرض النداء مرافقاً لحروف التنبيه تأكيداً عليه، أو دون تنبيه. ولم تلجئه الضرورة إلى ذلك، ولكنه استعمل هذا الأسلوب لخطاب المنادى خطاباً تفاعلياً تنبيهاً له وطلباً للخفة.

واستغنى عن الفعل بالمصدر في سياق التعجب لغرض المبالغة وإضفاء التصوير الحركي على النص لأن المصدر أكثر حيوية وحركة من الفعل الثابت.

ظاهرة الاستغناء باللغة: شعر الأعشى أنموذجاً

2- أما الاستغناء عن الأفعال بنظائرها في أسلوب الاشتغال فكان غرض الأعشى منه توكيد المعنى وبيان أهمية المستغنى به، وقد أكثر الأعشى من استخدام هذا الضرب من الاستغناء.

أما الاستغناء عن الأسماء: فقد أكثر الأعشى منه في إطار الاستغناء عن المبتدأ تعظيماً للخبر وتنبيهاً على مكانته، أما الاستغناء عن الخبر فهو أقلّ استخداماً عند الأعشى. والاستغناء عن الخبر يترك للعقل التفكر بمعان متعدّدة ويفتح آفاق الخيال والتصور الذهني، وقد يحذف الخبر لكثرة استعماله محذوفاً في كلامهم ووضوحه في الذهن كما في خبر "لولا".

ومن باب الاستغناء عن الأسماء، الاستغناء عن الفاعل، وهو قليل في شعر الأعشى، فقد جاء في باب الاستثناء المفترغ وفي ما جاء في الأفعال المكفوفة ب"ما".
وغرض هذا الاستغناء بلاغي، يبرزه السياق العام للنص.

4- الاستغناء يقع على العناصر القوية في التراكيب أكثر منه على الضعيفة، لذلك يقع على ما هو عمدة في الكلام أكثر من الفضلة، ولذلك فإن الاستغناء عن الأفعال أكثر من الأسماء.
5- ظاهرة الاستغناء في شعر الأعشى تصلح لأن تكون أطروحة كبيرة لاتساعها عنده، وقد اقتصر البحث على شواهد من شعره على سبيل التوضيح لا الحصر، لأن طبيعة البحث تقتضي ذلك.

الهوامش:

- (1) الأزهري: تهذيب اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، طبعة مصوّرة، مصر، د.ط، د.ت. 201/8 ("غني").
(2) ابن فارس: مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام هارون، ط2، مصر، المطبعة المصرية للكتاب، د.ت. 397/4 ("غني").
(3) انظر: الجوهري: الصحاح "تاج اللغة وصباح العربية" تحقيق: أحمد عبد الغفور عطا، ط4، بيروت، دار العلم للملايين، 1990م. ("غني"). وابن منظور: لسان العرب، د.ط، بيروت، دار صادر، د.ت. ("غني")
"جزأ"، والزيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، نسخة مصورة، د.ت، القاهرة، 1984م. ("غني").
(4) ابن سيده: المحكم والمحيط الأعظم، د.ط، بيروت، دار الكتب العلمية، 2000م. 14/6 ("غني").
(5) ابن منظور: لسان العرب، ("غني").

- (6) ابن منظور: لسان العرب، 136/15 ("غني"), والحديث في الطبراني: المعجم الأوسط، تحقيق: طارق عوض الله، د.ط، مصر، المطبعة المصرية للكتب، د.ن. 354/7 الحديث رقم 7710.
- (7) انظر: علي أبو المكارم: الظواهر اللغوية في التراث النحوي، ط1، القاهرة، دارغريب، 2006م. 19.
- (8) انظر: سيبويه: الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، ط2، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1977م. 631/3، 311/1، 312، 319.
- (9) سيبويه: الكتاب، 24/1، 25 باب ما يكون في اللفظ من الأعراس.
- (10) انظر: المررد: المقتضب، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، د.ط، القاهرة، 1963م. (211/2).
- (11) انظر: ابن السراج: الأصول في النحو، تحقيق: عبد الحسين الفتلي، د.ط، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1985م. 386/3.
- (12) السيرافي: شرح كتاب سيبويه، د.ط، مصر، دار الكتب المصرية، د.ت. 328/4.
- (13) انظر: ابن يعيش: شرح المفصل، د.ت، مصر، المطبعة المنيرية، نسخة مصورة عن عالم الكتب. 120/1.
- (14) انظر: ابن جني: الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار، د.ت، مصر، دار الكتب المصرية، 1952م. 75/1.
- (15) انظر: ابن يعيش: شرح المفصل، 94/1.
- (16) انظر: سيبويه: الكتاب، 163/2، وابن جني: الخصائص، 124/1.
- (17) ابن السراج: الأصول في النحو، 219/1.
- (18) انظر ترجمته في: ابن قتيبة: الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، د.ط، مصر، الدار المصرية للطباعة، 257/1، وأبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، د.ط، بيروت، مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، مؤسسة جمال للطباعة. 108/9.
- (19) ديوان الأعشى: شرح وتعليق د.محمد محمد حسين، د.ط، بيروت، دار النهضة العربية. 1972م. 135 القصيدة (17).
- (20) ديوان الأعشى: 229 القصيدة (25) والبيت مطلع قصيدة مدح فيها الأعشى شرح بن حصن.
- (21) ديوان الأعشى: 77 القصيدة (9).
- (22) انظر: سيبويه: الكتاب، 230/2، وابن الشجري: الأمالي الشجرية، تحقيق: محمود الطناحي، د.ط، القاهرة، مكتبة الخانجي، د.ت. 420/1، وابن الأنباري: أسرار العربية، تحقيق: محمد بهجت بيطار، د.ط، دمشق، مطبوعات مجمع اللغة العربية، 1957م. 210.
- (23) سيبويه: الكتاب: 275/1.
- (24) ديوان الأعشى: 137 القصيدة (17) والفصْد: شقُّ العرق لاستخراج الدم، انظر اللسان "فصد".
- (25) ديوان الأعشى: 193 القصيدة (18).
- (26) انظر: سيبويه: الكتاب، 324/1، والمررد: المقتضب، 218/3، وابن جني: الخصائص، 435/2.
- (27) انظر: ابن مالك: شرح التسهيل، تحقيق: عبد الرحمن السيد ومحمد بدوي المختون، ط1، القاهرة، دار حجر، 1990م. 185/2.
- (28) ديوان الأعشى: 69 القصيدة (8).
- (29) انظر: ابن منظور: لسان العرب، ("جدد").

- (30) ديوان الأعشى: 70 القصيدة (8) .
- (31) ديوان الأعشى: 65 القصيدة (7) الغروب: الدلاء العظيمة، والوكيف: السيلان، والانحدار: التزل. انظر اللسان لابن منظور "وكف وخدر".
- (32) ديوان الأعشى: 45 القصيدة (5).
- (33) انظر: ابن منظور: لسان العرب، ("نقل" و"غمر").
- (34) انظر: سيبويه: الكتاب، 80/1، 81.
- (35) ديوان الأعشى: 77 القصيدة (9).
- (36) انظر: الجرجاني: دلائل الإعجاز، قرأه وعلّق عليه: محمود محمد شاكر، ط5، القاهرة، مكتبة الخانجي، 2004م. 108.
- (37) ديوان الأعشى: 329 القصيدة (66).
- (38) ديوان الأعشى: 331 القصيدة (66).
- (39) علي أبوم المكارم: الظواهر اللغوية في التراث، 145.
- (40) ديوان الأعشى: 135 القصيدة (17).
- (41) ديوان الأعشى: 55 القصيدة (6).
- (42) الوجي: الحافي، صفر الوشاح: ضامرة البطن، الهكنة: الغضة الناعمة، وتأتى: تهيأ للقيام، ويتخزل: يتنقى. انظر: التبريزي: شرح المعلقات العشر، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، د.ط، مصر، مكتبة محمد علي صبيح، د.ن. 421.
- (43) ديوان الأعشى: 107 القصيدة (13)، والخضارم: جمع خضرم: وهو الجواد الكثير العطية، والحنعة: الرتبة، والمحدورة: الحرب، والقرع: المُتَفَرِّق. انظر: ابن منظور: لسان العرب، ("خضرم، خنع، حذر، قذع).
- (44) ديوان الأعشى: 233 القصيدة (35).
- (45) انظر شرح السيرافي في علم الكتاب 470/2، وابن جني: الخصائص، 373/2، والبغدادي: خزنة الأدب ولبّ لباب لسان العرب، تحقيق: عبد السلام هارون، ط2، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1979م. 452/10.
- (46) ابن السراج: الأصول في النحو، 250/1.
- (47) انظر: ابن جني: الخصائص، 373/2، وابن جني: سر صناعة الإعراب، تحقيق: حسن هنداوي، ط1، دمشق، دار القلم، 1985م. 517/2، وللتفتازاني: مختصر المعاني، مع حاشية الشيخ محمود حسن، ط1، كراتشي، مكتبة البشري، 2010م، بيروت، دار الفكر. 250/1، وابن الحاجب: أمالي ابن الحاجب، تحقيق: فخر صالح سليمان قدرة، د.ط، الأردن، دارعمار، بيروت، دار الجيل، د.ت. 750/2.
- (48) ديوان الأعشى: 203 القصيدة (30)، و"دارين" موضع بالبحرين، فيه سوق، كان يحمل إليه المسك من الهند. انظر: ابن منظور: لسان العرب، ("درن").
- (49) انظر: سيبويه: الكتاب، 129/2، والمبرد: الكامل في اللغة والأدب، تحقيق د.محمد الدالي، ط3، دمشق، مؤسسة الرسالة، 1418هـ. 362/1.
- (50) ديوان الأعشى: 55 القصيدة (6).

(51) التبريزي: شرح المعلقات العشر، 420.

(52) ديوان الأعشى: 25 القصيدة (2).

(53) انظر: سيبويه: الكتاب، 21/1، والمبرد: المقتضب، 19/1، والجرجاني: دلائل الإعجاز، 410، وابن جني: الخصائص، 101/1.

(54) ديوان الأعشى: 311 القصيدة (40)، وَرَّعُ الدَّرْعِ: فَضَّلُ كَمَّهَا عَلَى أَطْرَافِ الْأَنَامِلِ وَمُفَاضَاةٌ: وَاسِعَةٌ، وَأَسْهَلُ الْقَوْمِ: إِذَا نَزَلُوا السَّهْلَ، وَأَطْلَتْ: دَامُوا عَلَى الْإِيذَاءِ. انظر: ابن منظور: لسان العرب، ("ربع، فيض، سهل، طلل").

(55) ديوان الأعشى: 301 القصيدة (39)، وَأَوْضِعَ وَضِعًا: غُبِنَ وَخَسِرَ، انظر: ابن منظور: لسان العرب، (وضع).

(56) انظر: سيبويه: الكتاب، 115/3، وابن يعيش: شرح المفصل، 132/8.

(57) ديوان الأعشى: 205 القصيدة (30).

